المرأة العربية لاتزال أسيرة أخلاقيات المجتمع الذكوري

التونسية زهرة الظاهري: ليست هناك كتابات رجالية وأخرى نسوية

المرأة المبدعة لا يمكن احتجازها (لوحة للفنانة تغريد البقشي)

العديد من الأحباء والكتاب خيروا الانسحاب من الساحة الثقافية والانشغال أكثر بنصوصهم بدل التجاذبات الفضفاضة التي قد تفسد جو الإبداع وتبتلع الكاتب في فوضاها التي لا تخدم الإبداع. الكاتبة التونسية زهرة الظاهري واحدة ممن خيرن العمل بعيدا عن صخب التجمعات لتقدّ تجربة أدبية هامة. "العرب" التقتها في حوار حول تجربتها.

حسونة المصباحي
كاتب تونسي

رغم مشاغل وهموم الحياة إذ أنها متزوجة، وأم لطفلين، ومعلمة في مدرسة ابتدائية بمدينة سيدي بوزيد بالوسط التونسي، فإن الروائية والقاصة التونسية زهرة الظاهري لا تكاد تنقطع عن الكتابة، جاعلة منها وسيلتها المفضلة لسرد ذكريات طفولتها المعذبة، حيث نشأت وسط عائلة بدوية قاسية ومحافظة، ورجالها كارهون للمرأة، ومتطرقة إلى مواضيع تتصل بحياة النساء في منطقتها حيث لا تزال التقاليد صارمة، ومؤثرة بقوة في حياة الأسر من مختلف الفئات.

طفولة قاسية

غالبا ما تكون النساء في هذه المنطقة موظفات صغيرات يعشن حياة رتيبة خالية من المفاجآت.

وهن غالبا ما يكبحن عواطفهن، ويخفين أسرارهن لأن الكشف عنها قد يُعَرّضُهُنّ إلى ما يزيد في تنغيص حياتهن.

في جل قصص زهرة الظاهري المكتوبة بلغة سلسة، نجد جل النساء ضائقات بالحياة الزوجية في منطقة تكاد تكون خالية من وسائل الترفيه، ومن المرافق التي تخفف من رتابة الحياة اليومية. لذا تكثر كوابيسهن، وتتعقد حياتهن لينعكس كل ذلك سلبيا على الجسد والروح.

وأما الرجال فهم غلاظ القلوب والنفوس. وهم قساة تجاه الأطفال والنساء. والرجل الذي يكون رقيق الإحساس، وطيب السريرة يجد نفسه مكروها من قبل الرجال الآخرين، ومعزولا في تلك المنطقة التي لا تزال فيها قيم الرجولة والشرف، تتحكم في حياة الناس.

عن تأثيرات طفولتها، تقول زهرة الظاهري "لا أعتقد أنه يمكن لأحد أن يكون بمنأى عن طفولته بكل ما تحمله تلك الحقبة من حياتنا من ذكريات وعبث طفولي وشقاء أيضا. وقد عشت شقاء لازمني منذ طفولتي الأولى. لذلك لا يمكن أن أتغنى كما كان يتغنى أبوالقاسم الشابي في قصيدته الشهيرة 'لله ما أحلى الطفولة إنها حلم الحياة' بطفولة مشوبة بالفقر والحرمان والعنف المسلط على طفلة متمردة من لدن أسرة بدوية، منحازة كل الانحياز إلى أخلاقيات المجتمعات المتكلسة".

وتضيف الكاتبة "تلك العائلة حرمتني من أن أنعم بطفولة هادئة ومتوازنة، وهذا ما ينعكس في جل القصص المستوحاة من طفولتي في الريف، قرب سيدي بوزيد، بالوسط التونسي المعروف بنعراته القبلية، وبتمسكه بالشرف، وبإشادته بالرجولة بمفهومها البدائي".

وفي سنوات المراهقة، شرعت زهرة الظاهري تكتب خواطرها ومشاعرها لتجد في ذلك ما خفف عنها عذابات الحياة في البيت العائلي، وخارجه.

وهي تقول "ألم يقل كافكا 'الكتابة انفتاح جرح ما؟' ربما لهذا السبب بالذات، كنت منذ طفولتي الأولى المشوبة بالقسوة والحرمان ألوذ بالكتابة التي أصبحت شيئا فشيئا هاجسا يسكنني وإدمانا يرافق شجني ونسجا لكياني المتشظي يرى في الثبات موتا. أما الحياة فهي النظر إلى كل الأقاصي البعيدة والتحليق بخيالي إلى آفاق لا متناهية".

وتتابع الظاهري "كنت منذ طفولتي مُتخمة بأسئلة تقض مضجعي فتراني أقوم في آخر الليل والجميع نيام أعدو خلف تلك الأشياء المنوعة من المجاهرة بها أو التلميح إليها أو حتى مجرد التفكير فيها لتكون شغلي الشاغل الذي يكبله الخوف فترتد داخل أعماقي لتتمظهر في شكل أسئلة حائرة أدونها خلسة، أعود إليها كلما انتابني شعور بضيق الأماكن".

تعبير إنساني

تقول الكاتبة التونسية "لاحقا اكتشفت أن كل ما بيني وبين الكتابة حكاية عشق، عشق مشوب بالأرق والضجر حين أكون قد ضقت ذرعا بكل ما يجري من حولي فأهجر الجميع وألوذ بعزلتي أمارس لعبة التخفي والمشي في الطريق وحيدة أتأمل العالم من حولي وأدوّنُ خربشاتي الصغيرة التي بدأت بخواطر مراهقة لتتحول إلى نصوص أدبية لامرأة ناضجة تحاول أن تكون مواكبة رغم عزلتها لكل ما هو جديد في عالم الأدب والكتابة".

إلاّ أن هذا الإقبال المبكر على الكتابة، رافقته أيضا رغبة محمومة في قراءة مؤلفات كتاب تونسيين وعرب".

عن ذلك تقول زهرة الظاهري "في الحقيقة، كنت مغرمة منذ طفولتي بقراءة كل ما تقع عليه يدي حتى تلك الصفحات المتناثرة التي أجدها صدفة على حافة الطريق. وبما أن الكتاب لم يكن متاحا لي بتلك السهولة المتوقعة فقد كنت أكتفي بقراءة ما ينشر في الصحف التي كان أخي الأكبر يقتنيها. وحين لاحظ شغفي بالقراءة أصبح يقتني لي بعض المجلات وبعض القصص".

وتتابع الظاهري "بدأت رحلتي مع مجلة عرفان وبعض قصص الأطفال التي ما زلت أذكرها حتى اليوم. ثم في مرحلة ثانية، عقدت اشتراكا مع مكتبة المعهد والمكتبة العمومية فقرأت لكتاب كثيرين تونسيين كمحمد العروسي المطوي والبشير خريف وعبدالقادر بن الحاج نصر وعلي الدوعاجي ومحمود المسعدي وغيرهم. وعرب كإحسان عبدالقدوس والمنفلوطي ومحمود تيمور ونجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وطه حسين وحنا مينه الذي أثرت فيّ كتاباته كثيرا".

أما الكتاب الأجانب فقد كان لفكتور هوغو والبير كامي وساراماغو وفلوبير وغيرهم ممن قرأت لهم تأثير كبير على كتاباتي في ما بعد.

وبسبب مشاغلها، وبعدها عن العاصمة، تجد زهرة الظاهري نفسها مجبرة في غالب الأحيان على العيش في شبه عزلة تقريبا عن الحياة الثقافية في تونس إذ نادرا ما تواكب فعاليات الملتقيات الأدبية. مع ذلك هي تبذل كل ما في وسعها لمواكبتها عن بعد، والتعرف على كل ما هو جديد في المشهد الثقافي والفني والإبداعي إذ أن الفضاء الرقمي يكسر عزلتها ويقربها من العالم حتى البعيد عنها.

ولا تعتقد زهرة الظاهري أن هناك كتابة رجالية وأخرى نسوية، وهي تقول: بما أن المتداول عن الأدب أنه شكل من أشكال التعبير الإنساني عن مجمل شواغل الإنسان وهواجسه وأفكاره فمن المفترض أنه لا مجال للحديث عن كتابات رجالية وكتابات نسوية. فالمرأة المبدعة مثلها مثل الرجل من المفترض أن ننظر إلى نصها بكونه إبداعا بمنأى عن الفوارق الجنسية إلا أن الحقيقة في الكثير من الأحيان تكون عكس ذلك فالمرأة المبدعة ما زالت لم تتحرر بعد من أخلاقيات المجتمع الذكوري وهو ما أراه نوعا آخر من العنف المسلط ضد المرأة المثقفة وهو عنف اللغة وعنف الفكر.

زهرة الظاهري

الأدب تعبير عن مجمل شواغل الإنسان وهواجسه وأفكاره، لذا لا يمكن تقسيمه جنسيا

نساء بين جحيم المشاهير ونعيمهم

وارد بدر السالم
كاتب عراقي

لا يخلو نص أدبي من دون رائحة المرأة ووجودها ودورها الواقعي أو التخييلي. وهذه حقيقة ليست من حصيلة قراءات متواصلة وتجارب في الكتابة. بل هي استخلاص واقعي لأهمية وجود المرأة كمضمون أدبي ذي زوايا نظر متعددة ومختلفة وربما متقاطعة.

وشهدت الأدبيات السردية والشعرية والمسرحية والسينمائية والفنية والجمالية منذ بدء الكتابة ونشأة الفنون كلها حضور المرأة البارز، تاريخيا، في أدوارها النصية والفنية الكثيرة، نظرا لما تمثله من قطب آخر يوازي الرجل في أهميته الحياتية والواقعية. فالحياة كما هو مفهوم عبارة عن ثنائيات متنافذة في ما بينها تشكل وحدة عضوية تامة لها دورها المستقل في الحياة.

لذلك فوجود المرأة في الأدبيات محكوم بهذه الثنائية -الرجل والمرأة- ولا تخلو الروايات والأشعار والمسرحيات والأفلام واللوحات والملاحم الأسطورية من وجود المرأة في المركز أو الهامش، لأنها تمثل النسق الأكبر في الحياة والضلع الفني في الأعمال الإبداعية.

ولا يخلو الأرشيف الأدبي والإنساني والجمالي من آراء وأفكار وفلسفات متقاطعة عن المرأة ساهم فيه أدباء وفنانون وفلاسفة وباحثون واجتماعيون وأكاديميون، لم يستطيعوا التخلص بالإجمال من شخصنة علاقاتهم بالمرأة وفرزها فكريا وأدبيا، وبالتالي كانت روافد الآراء كثيرة تتشابه ولا تتشابه في معظم الأحيان. وربما بعضها غير موضوعي على أن يكون البعض الآخر ممكنا ومعقولا في تشخيص العلاقة المحتملة مع المرأة كصانع للحياة ومواز للرجل تماما.

الآراء تمثل اشتباكات نوعية في فهم المرأة بين الفلاسفة والمشاهير والسرديين والسينمائيين والشعراء والفنانين. فمن لوحة جورنيكا الغامضة ذات التأويلات في إسقاطاتها المتعددة التي شغلت النقاد عقودا من الزمن ولا تزال، إلى نابليون الذي خلُص إلى أن وراء كل رجل عظيم امرأة -وهو الشعار الذي ترفعه النساء في المناسبات المختلفة- إلى نزار قباني الذي كرّس كل قصائده للمرأة والحب والجمال؛ حتى الجدل الفوضوي في آراء نيتشة وسقراط عندما وضعا المرأة كفارزة بين النعيم والجحيم، أو أنها مصدر الخير والشر في وجهتي نظر مختلفتين تماما. بينما يرى أبقراط بإطلاق تام أنّ المرأة هي المرض. ومع أن بلزاك وازن بنظرته المعتدلة الراقية للمرأة عندما وصفها بأنها مخلوق بين الملائكة والبشر وأنها أقرب الكائنات إلى الكمال؛ فإن شوبنهاور رأى فيها الطفلة الباقية في كل مشوار حياتها. والكثير من المشاهير الأدبيين والسياسيين والعلماء اختزلوا المرأة بمفردة واحدة فقط، على أنها "الآلة" و"الرغبة" و"الجاذبية" و"العاطفة" و"الفضيلة" و"القانون" و"الجنون".

وفي تعددية هذه الآراء واختصاراتها الرومانسية تتعاقب المرأة في النصوص مع هذه التعريفات الخاطفة؛ ففي الشعر هي الحلقة الرومانسية والعاطفة المشبوبة التي تلهم الرجل وتستحوذ على مشاعره وتفيض في خياله لغة ورؤى جاذبة، لذا تأتي القصيدة مشحونة بعطر النساء الذاهبات إلى الخيال أو العائدات منه، وفي الرواية تتوسع شخصيتها كثيرا حتى تنكشف عاشقة أو مثالية أو متمردة أو مجنونة أو مجرمة أو خائنة أو جاسوسة أو منتقمة، فستقطب القراءة وتخضع للتفسيرات المتلاحقة، وتذهب الآراء الفلسفية إلى اليمين والشمال كما في "إيما" التي خلق منها فلوبير عقدة نفسية في عواطفها المشتتة. وسنرى في ثلاثية نجيب محفوظ "أمينة" المرأة المصرية الخانعة التي هيمن عليها الذكر كليا. بينما نجد جزءا وافرا من السيرة الذاتية لمعظم سرديات التشيلية إيزابيل الليندي، منعكسة على عدد من نساء النصوص.

ومع أن النص ليس هو الواقع تماما والواقع ليس هو النص، لكن ما بينهما نساء كثيرات؛ غامضات وعاشقات وخبيرات حب وجنس، صالحات وطالحات وناجحات وفاشلات، صغيرات وكبيرات ومراهقات وفاتنات وقبيحات، يزدن من خبرة النص ويلهمنه الكثير من الجمال والتأويل. وسنرى باختصار بعض الأفكار المتناوبة التي ترى القطبين السالب والموجب في المرأة؛ فهي ليست "مخلوقة ساعة"، بوصف دانتي، إنما هي بحسب غوته الإناء الوحيد الباقي لنا لنفرغ فيه مثالياتنا. وهذه المثاليات هي التي تشفُّ في الكتابة وتتوضح الصورة ومهيمناتها الأساسية في كيفية التفكير بالمرأة.

بينما تأطير دانتي غير موضوعي بالنظر إلى هذا الكائن السماوي كما يصفه الكثيرون ممن عرفوا أن للمرأة حضورا قويا في الحياة والنصوص. لذلك فإن الأنثى هي كاهنة القضاء والقدر (بيكنسفيلد) وتاج الخليقة (هيردر) وأبهج شيء في الحياة (كونفوشيوس) والمرأة الصالحة خير للرجل من عينيه ويديه (مسلمة بن عبدالله) وهي آخر شيء تصل إليه الحضارة (جورج مريديت).

الأرشيف الأدبي والجمالي لا يخلو من آراء وأفكار وفلسفات متقاطعة عن المرأة ساهم فيه أدباء وفنانون وفلاسفة

نقرأ في جو المرأة العام والخاص الروايات والأشعار ونرى اللوحات ونشاهد الأفلام ونستمع إلى الموسيقى. ثم نقرأ أفكار الكبار من الأعلام بتقييم المرأة، فتصدمنا الكثير من الآراء لنرى في السير الذاتية لاحقا امرأة واحدة فقط؛ حبيبة خائنة كانت أما وزوجة ترتكب الحماقات؛ هي التي غيّرت مفهوم الرجل عنها في شخصنة ذاتية وترسيخها كمقولة متعسفة عن هذا الكائن المختَلَف عليه. كما عند توما الأكويني لما يرى في المرأة إنسانا ناقص التكوين وكائنا عرضيا في الحياة.

غير أن الروائي الفرنسي هنري دي مونترلان؛ المعروف بكرهه وعدائه للنساء في حياته وكتاباته يكتب عن المرأة بأنها هي الاشمئزاز. وهذا الرأي ناجم عن شذوذه المعروف ومن ثم فقدان عينه إثر ضربة شمس أدت إلى انتحاره.

وحينما نتصفح كتاب المرأة الضخم في أفكار المشاهير والأعلام العالميين نجد العديد من الأفكار تتصالح مع المرأة وترى فيها الجزء المتمم للرجل، ولعل أبلغ قول جاء من البريطاني روديارد كبلنغ عندما قال إن المرأة وحدها هي التي علّمَتْني ما هي المرأة.

نموذج خاطئ عن المرأة (لوحة للفنان عمار النحاس)